

## أغلاط الافرنج

من نظر في كتب من يعالجون من الافرنج مسائل المسلمين والاسلام يقع فيما دونوه على أغلاط مستغربة قد تدعو الى سوء الظن بجهنم ودرسهم .  
وتكثر هذه الأغلاط وتقل بحسب بعد المؤلف وقربه من ديار الاسلام .  
وأقل الكتابين غلطاً في هذا المعنى علماء المشرقيات فانهم ينصرفون الى دراسة بعض لغات الشرق وقد يعيشون بعض العرب والمسلمين ويرحلون الى اصقاعهم فيعرفونها معرفة لا بأس بها ويتعدون عن ارتكاب الفاحش من الأغلاط ، وخاصة اذا لم يكن لهم ضلع في السياسة .

وتنقسم هذه الأغلاط الى أقسام منها الغلط اللفظي ومنها الغلط الفكري او الحسي . ومنها ما ينشأ عن جهل الكاتب موضوعه كأن يرجع الى كتب ضعاف المؤلفين عندهم من مثل ارباب الرحلات المترجمة والقصاص الملقمة وكتابات المؤرخين المستأجرين والصحافيين المهرجين ممن يهيمهم قبل كل أمر ان يحملوا الى قرائهم كل غريب فان لم يجدوا اخترعوا ما تلميه عليهم مخيلاتهم وأوردوه في معرض الحقائق . ومنها الخطأ العمد وهذا يسوق اليه التعصب الديني أو الغرض السيامي أو كلاهما معاً . وهذا الضرب من الأغلاط يكثر في الأمم اللاتينية أكثر من غيرهم وهي منبعثة فيهم عن احقاد قديمة متوارثة ونتيجة لازمة لقلّة عنايتهم بالتحقيق والتدقيق . ولا يتأتى في هذه العجالة استقصاء ما حملته كتبهم ومجلاتهم من هذا القليل ولذلك نجتزي بإيراد أمثلة منها يستدل الناظر البصير على مبلغ مؤلفيها من البحث . فمن أقدم هذه الأغلاط محاولة الصاق حريق مكتبة الاسكندرية بعمر بن الخطاب ليذهبوا من ذلك الى ان الاسلام دين تخريب . وهذه الخزانة أحرقت بالتحقيق قبل الاسلام بقرنين ، وكان واضح هذه الأسطورة السمجة راهب شرقي فنلقفها دعاة التعصب في الغرب كأنها رحمة نزلت عليهم من السماء . وقد

رد هذه الفرية جهاذة النقد من الغربيين لعيدنا بعد ان راجت قروناً عند عامتهم ومن في حكمهم من المؤلفين .

ومن اغلاط الفكر المتعمدة ما روجه الآباء اليسوعيون للحط من قدر الاسلام وكانوا كيف داروا يخلتقون ما لا اثر له إلا في أدمغتهم . وقد رددنا على بعض اغلاطهم فيما آزرنا فيه من المجلات وفي بعض ما ألفناه من الكتب . وفي مقدمة من كتب له التميز في هذا الباب عميد الأب هنري لامنس فانه صرف عمراً طويلاً في الطعن في الاسلام والعرب حتى دعوه في أوروبا المؤرخ المتخرب وأصبح العارفون هناك بأخذون كل قول له بجز شديد لأن الغرض ظهر على كل ما كتب . وقد تقدنا في المجلد الثاني والسادس والسابع من هذه المجلد ما ارتكبه من الاغلاط في تأليفه موجز تاريخ سورية ( بالفرنسية ) وأتينا على تزييف ماشوه به وجه معلمة الاسلام Encyclopédie de l'Islam من المقالات النابية عن حد العقل والعدل . ومن قرأ مقالاته في هذه المعلمة وهي من أصح ما كتبه علماء المشرقيات في الشرق الاسلامي وعارضها بما كتبه غيره ممن لا مارب لهم غير ذكر الواقع يعرف مبلغ افتئاته على تاريخنا وشرعنا وصاحبه وصحابته ، وكأنه آلى على نفسه أن يهدم ولا يبني ، وينكر ولا يثبت ، ويهرج ولا يحص .

ومن اغلاط الفكر الناشئة بالضرورة عن تعصب متأصل قول مؤلف تاريخ اسبانيا Walteufel : Esquisse de l'histoire d'Espagne ان هؤلاء العرب المتعصبين الذين أمرهم نبيهم ان يحملوا على الكفار وبذبحوهم ليرضى عنهم خالقهم ! قد ساروا مع النصارى من سكان ايريا ( أهل اسبانيا ) بتسامح عجيب فأطلقوا لهم الحرية في دينهم وكانوا يحترمون معابدهم ويحفظونهم في أموالهم وأنفسهم ، وهو مثال من الحكم قلما جرى عليه الفاتحون وبكفي أن نذكر ما أتاه النورميون النصارى اصحاب غليوم الفاتح واتباعه حتى القرن الرابع عشر من ظلم السكسونيين اهل دينهم وما ارتكبهوه في اخلافهم من الفظائع .

هذا ما قاله ونحن نرى انه كذب في حكمه على الرسول وصدق في قوله بأن المسلمين في الأندلس عاملوا نصاراها معاملة لم يقع لغالب ان عامل بها المغلوبين ، والأرجح أنه بنى حكمه في صاحب الرسالة على ما تلاقى في بعض كتب رهبان القرون الوسطى وعمما انتقل اليه في الدم من اجداده الذين كان من أهم مظاهرهم بغضة الاسلام وانكار فضل العرب . وحكم على تساهل المسلمين في الأندلس بأقوال المؤرخين المعاصرين وكان في حكمه مقلداً . ثم عاد لمكان التعصب من نفسه فأخذ بعد فقرات قليلة يصغر من شأن العرب في الأندلس ويقول انه لم ينشأ منهم سوى قليل من النبغاء من عيار ابن رشد . وليته قال لنا كم من فيلسوف اخرجت اسبانيا النصرانية في طويل عمرها ، واظن أنما كثيرة وكبيرة لم تخرج نصف عيار ابن رشد . ولو قرأ المؤلف كتاباً واحداً من الكتب المعتمدة في التاريخ خلجل ان ينسب ما نسب الى محمد بن عبد الله الرسول العربي الأُمي من الشدة على غير أهل دينه ولعلم انه أوصى بأهل الذمة في كل فرصة ، وكذلك فعل اصحابه بعده ومن بعدهم . ولو كان حض على ارهاق النصارى وذبحهم كما زعم ذلك المؤلف كيف يجسر اخلافه ولو بعد قرون ان يخالفوا هديه ويعمدوا الى محاسنة النصارى ؟ هراء أملتة عقول ضيقة لا تستحق ان انصفنا ان يُرد عليها . وما ورد في الكتاب العزيز من الحث على قتال الكفار فانه قصد بهم مشركي العرب لا أهل الكتاب كما هو ظاهر لمن يقرأ القرآن ويفهمه .

ومن أغلاط الحس المنبعثة من استقراء ناقص ولا يليق صدوره من فيلسوف مثل رنان — وهو الرجل الذي طالما أعجب بمدينة العرب وما في الاسلام من فضائل وود لو يسلم لما رأى خشوع المسلمين في صلاتهم — ما صدره من حكم جائر على المسلمين كافة في كتابه بعثة فينيقية Mission de Phénicie لما جاء الشام سنة ١٨٦٠ ليجري حفريات في جزيرة ارواد فرأى من سكانها بعض غلظة فقال ان المسلمين كلهم منخطون وكال لنا بالكيل الوافي بما شاهده من سوء معاملة صيادين فقراء أساءوا معاملته على ما ادعى .

ومن الغلطات الناشئة عن جهل على ما يظهر قول توفتر في كتاب فلسفة الحضارة  
 Towner : Histoire de la civilisation ان خلفاء المغرب ( يعني بني أمية  
 في الأندلس ) ساروا على مذهب علي رابع خلفاء محمد ( أي كانوا علويين ! ) .  
 والغالب انه نقل هذا عن جيون في كتابه عظمة المملكة الرومانية وانحطاطها .  
 ومما أخذ عنه توفتر ايضاً ان علياً كان وزير محمد وهو شاب لم يتجاوز الرابعة  
 عشرة من سنه . ولتوفتر هذا غلطات غير مقصودة نشأت فيما رأينا من ضعف  
 استنتاج مثل قوله ان الفاتحين من العرب في ديار الغرب كانوا من أبناء  
 النصرانيات اللاتي تزوجن من غير المسلمين فأخذوا منهن أظهر ما في الدم  
 المسيحي ، ولئن دانوا بالاسلام وهم عرب بألسنتهم واسمائهم وأصول آبائهم فانهم  
 لم يكن في دمهم من الدم العربي غير واحد من ستة عشر فقط . ومثل هذا  
 قوله ان المسلمين على ارجح الظن صلوا الى شمالي افريقية ألفوا شرب الخمر  
 وزاد غرامهم بالخمر لما بلغوا اسبانيا . وأغرب من هذا وذاك دعواه ان المسلمين  
 لما كانوا يتعاطون الخمر فتحوا العالم فلما استعاضوا عنها بشرب القهوة تراجع أمرهم !  
 ولو درس هذا المؤلف تاريخ المسلمين كما درسه صاحب حاضر العالم الاسلامي  
 لوثرروب ستودارد الأميركي ولم يكتب كتابه حتى تلقى تاريخ الاسلام بضع  
 سنين على أستاذ يحسن أخذ التاريخ من الكتب العربية مباشرة لكان ادرك  
 انه لم يكن احد من المسلمين يجراً على تعاطي الخمر في القرن الأول وبعده  
 إلا في مر ذلك لأن الشدة في إقامة الحدود كانت بالغة المبالغ . وهذا النوع  
 من المبالغة مثل مبالغته فيما نقله عن بونغ من ان الجيش الاسلامي الذي غزا  
 فرنسا سنة ٧٣١م كان خمسمائة الف على الأقل ، وهذا العدد لم تصل اليه  
 دولة من دول العرب لأن الجيش العربي الذي فتح الأندلس كلها لم يتجاوز  
 الاثني عشر ألفاً ومهما غلونا في تقدير جيش العرب يوم يواتيه فلا يتأتى لنا  
 إبلاغه الى خمسين ألفاً . علي أن سينوبوس المؤرخ يقول في كتابه التاريخ السليم  
 للأمم الفرنسية Seignobos : Histoire sincère de la nation Française

ان أخبار انتصارات شارل ( مارتيل ) على المسلمين في يواتيه لم تصل إلينا إلا من طريق ضعيفة الثقة وليس من المؤكد كما زعموا انه أنجى اوربا من غارة العرب والعرب ما كانوا يريدون الإقامة إلا في الجنوب وجاءوا يواتية آيين من غزواتهم في تور وقد حالت الحرب الأهلية التي نشبت بين العرب والبربر دون هذه الإقامة .

ومن أغلاط اللفظ أو الترجمة ما قاله صاحب كتاب المرامي الاستقلالية في اوربا Les aspirations autonomiques en Europe عند الكلام على المغلوبين على أمرهم في الصرب انه تتألف منهم الرعية وفسر الرعية بالماشية وقال انها مواشي حقيرة وجديرة بالاحتقار . وليس من المعقول ان تطلق دولة على رعاياها اسم الماشية او السائمة فان المترجم اختار اصل المعنى اللغوي وبنى عليه وهو غير صواب . وفي « اللسان » الرعية ( والجمع الرعايا ) الماشية الراعية أو المرعية والراعي الوالي والرعية العامة . وهذا هو المقصود ، وقد جرت على الألسن كلمة الراعي والرعية مقرونين معاً عندما يراد اطلاق هذين اللفظين على الرئيس والمرؤوس والحاكم والمحكوم عليه .

ومن مضحكات الهفوات ما ارتكبه مؤلفا التاريخ العام ومؤازروهما Lavisse et Rambaud : Histoire générale Rome كان يخلط على الكاتب لفظ الروم برومية والفرق بينهما كبير جداً فان الأتراك كان يقال لهم ابناء الروم او الروم اي سكان آسيا الصغرى وبقي هذا الاسم يطلق عليهم الى عهد قريب وكان يطلق على انبراطورية القسطنطينية مملكة الروم ولما فتحها العثمانيون بقي اسمها على ما كان أيام بني سلجوق أصحاب الأناضول قبل العثمانيين وكان يقال لهم أيضاً صلاحقة الروم ولما فتح الترك العثمانيون ممالك البلقان اطلقوا عليها اسم روم ايلي . وأطلق علماء الجغرافيا من العرب اسم بلاد الروم على شبة جزيرة الأناضول . فالأتراك العثمانيون ليسوا إذاً أبناء رومية العظمى كما قال هؤلاء المحققون .

وفي هذا التاريخ أيضاً عند الكلام على حال جزيرة العرب في القرن الماضي (ص ٥٥١ ج ١١) ان محمد بن عبد الوهاب دعا في نجد الى اسقاط المذاهب المعتمدة عند اهل السنة (الحنفي والحنبلي والشافعي والمالكي) وقضى الا يعمل الا بالكتاب والسنة اي لا يقتدى إلا بمحمد وصحابة الأربعة مما ورد في الحديث وان مذهبه كاد ان يكون مذهب اعتزال جديد وأشار الى تحريمه شد الرحال لزيارة القبور والتوسل بغير الله الخ .

وقوله ان محمد بن عبد الوهاب خرج على مذهب احمد بن حنبل كما خرج عنى المذاهب المعروفة غير صحيح لأن ابن عبد الوهاب لم يدع الى مذهب جديد ابتدعه بل دعا الى مذهب احمد بن حنبل . وهذا المذهب كسائر المذاهب يشتد في انكار البدع فمذهبه لم يخرج عن المذهب الحنبلي في شيء وانما كان هذا المذهب ميثاً في نجد فأحياه وأعاد قومه الى حجر التوحيد وكره اليهم الشرك بالله . وأهل نجد لا يحبون ان يدعوا «وهاية» نسبة لمرشدهم الجديد ويفضلون ان يقال لهم سلفيون اي قائلون بمذهب السلف او حنابلة وهو الأقرب الى الواقع فان داعيتهم ما أخذ عن غير ابن حنبل ومن قال بقوله كابن نيمية وتليذه ابن قيم الجوزية (راجع مقالتنا أصل الوهاية في مجلة المقتطف المجلد ٢٥ ص ١١٢) وفي هذا التاريخ أمور ظهر عليها جهل يستغرب صدور في سفر تعاورت أيدي كبار مؤرخي فرنسا على تأليفه وعدوه مثال الاجادة في التأليف وسلوكه في سلك مفاخرهم ولكن أنى يتجرّد هؤلاء المؤرخون عن تربيتهم وهم اعداء كل ما يخالف ما اعتقدوه هم وآباؤهم ؟ . ان ما كتبوه في الجزء الأول من هذا الكتاب في سيرة الرسول يخجل من كتبه اجهل الناس لبعده عن حقيقة الرسول كثيراً ولا يلبق بمؤرخ تدوين مثل هذه الهنات في أعظم شخصية عرفها التاريخ ، وليست حياته الشريفة بالمجهولة وهي في متناول كل من أحب معرفتها وحكم عقله واستشرف انصافه ولكن من مؤرخي اللاتين من يكتبون تواريخهم الى اليوم بعوامل سياسية وعوامل دينية مع الأسف .

## محمد كرد علي

ومن أعجب ما يدون ان سينيوبوس أكبر مؤرخي فرنسا في العهد الأخير ، وهو الرجل الذي قضى أكثر من ستين سنة بتعلم التاريخ ويعلمه ، لم يستطع ان يتحرر مما انتقل اليه من التعصب الموروث فقد قال في كتابه تاريخ الحضارة ان صاحب الرسالة كان رجلاً جباناً سوداوياً تنتابه عوارض من الحمى وتعره نوبات عصبية وان المسلمين اعتادوا منذ القرن العاشر ان يغالوا ببلاغة القرآن ، ولم يكن هذا الاعجاب ببلاغته مألوفاً للعرب في القرون الوسطى ، ويرى احد العارفين (دوزي) ان معظم آيات القرآن قد كتبت بلغة عربية تكاد تكون الى الركافة ! وقد رددنا على هذا الهذيان في المجلد السابع من مجلة المقتبس وفي الجزء الأول من كتاب الاسلام والحضارة العربية .

ومعلوم ان اعدى اعداء الرسول لم يجرأ أن يصمه بالجبن وهو الذي ظالما تعوذ بالله من الجبن والبخل والكذب كما ورد في الصحيح . وهل لسوداوي ان يؤثر ما أثره محمد عليه الصلاة والسلام في أمته وغير أمته ؟ ومن نسل الانسانية المعذبة كما نسلها ، ومن أخرج الناس من الظلمات الى النور كما كان منه ؟ اما القول في غلو المسلمين ببلاغة القرآن فضرب من السخافة . ومن الغريب ان يقول دوزي ان معظم القرآن كتب بلغة تكاد تكون الى الركافة . مع كل ما طعن به اليسوعيون في الاسلام فقد أقروا ان ليس له غير بلاغة كتابه ، ودوزي لم تقو المدنية الأخيرة ان تحرره من قول السخف في القرآن . وقد اعتذر نولدكه الألماني صاحب كتاب تاريخ القرآن عن أغلاط ارتكبتها في شبابه بقوله ان آثار تهور الشباب لا يمكن محوها كلها إلا بإعادة النظر فيما كتبوا او الابتداء بوضع تأليف جديدة تعني أثر القديمة فان كثيراً من المسائل التي كنت أعتقد بصحتها قليلاً أو كثيراً استبان لي فيما بعد أنها غير أكيدة . ولعل دوزي لو جاء لاعتذر بمثل هذا العذر وكذلك بعض من خلطوا في الكلام على الاسلام وهم لا يعرفونه وما كان خطهم عن قصد ميء .

والمؤرخ سينيوبوس على جلالة قدره في فنه غلطات في الاسلام لا تصدر

عن أقل الكاتبتين بضاعة منها قوله في كتابه نبذة في التاريخ المقابل للشعوب الاوربية  
Seignobos: Essai d'une histoire comparée des peuples de l'Europe  
حال دون تقدم النصارى في الأندلس غارة مؤلفة من أهل نخلة جديدة  
سميت بالمرابطين جاءت من مراكش واخضعت لسلطانها عامة اسبانيا الاسلامية .  
وما كان المرابطون أهل نخلة اي دين جديد بل كانت لهم طريقة ودعوا المرابطين  
لأنهم أخذوا على أنفسهم العهد ان يرابطوا في سبيل الله ومذهبهم كذاهب  
المسلمين في عهدهم وكان مذهب مالك .

ومن أغلاط الافرنج الفكرية المنبعثة من جهل بالجغرافيا ما جاء في معجم  
السياسة أو الدبلوماسية ، وهو كتاب كتب في أوله انه تأليف معظم رجال  
السياسة في الأرض أو ٢٧ رئيس حكومة و ٤٧ وزير خارجية و ٥١٢ سفيراً  
ووزيراً مفوضاً وكلهم أعضاء مشتركون بهذا العمل ينوبون عن ٧٣ دولة .  
تقول هذه المعلمة او دائرة المعارف السياسية أو المعجم السياسي ان حكومة العلويين  
تقع بين جبل الدرروز ولبنان الكبير على البحر المتوسط وان سكانها ٢٦ ألفاً  
وعاصمتها اللاذقية في حين ان اللاذقية وحدها يبلغ سكانها نحو اربعين ألفاً  
وجبال العلويين لا تقل نفوسها كثيراً عن خمسمائة الف ، وجبل الدرروز يبعد  
أكثر من مئتي كيلومتر عن جبال العلويين فهو في أقصى جنوبي شرقي سورية  
وأرض العلويين في الشمال الغربي من الديار الشامية .

وعلى ذكر العلويين لا بأس أن نذكر القراء بما جاء في كتاب دولة العلويين  
لمؤلفه بول جاكو P. Jacquot : L'Etat des Alaouites من ان النصرية  
والامماعيلية شعبان مختلفان وديتان متباينتان ليسا من الاسلام في شيء وقد بقيت  
في أرضهم العبادات الفينيقية القديمة حيث وجد الدينان الباطنيان النصرية  
والامماعيلية اشد اشياهما غيرة وحماسة .

وعجيب ان يفوت المؤلف - وقد عاونه في تأليفه ثلاثون رجلاً على  
ما ذكر في فاتحة كتابه - ان النصرية والامماعيلية شيعتان من شيع المسلمين



ويحاول ان يخرجها من الاسلام وجميع علماء الملل والنحل يقولون بأنها طائفتان اسلاميتان بأصلهما وشعارهما وعقائدهما فمن أين هذه الفصاحة في أنهم بقايا الفينيقيين وهم معروفون من أين أتوا وكيف تديروا تلك الأرجاء . وهذه أغلاط تمليها السياسة الخرفاء .

وقد حاول بعض من كتبوا في أخبار لبنان من الافرنج ان يخرجوا الأمير فخر الدين المعني الثاني من أهل السنة وبلد قوه بالدروز ومنهم من جهد ليقول إنه دان بالنصرانية . ولا يلزم من يحكم ولاية ان ينتحل مذهب أهلها . وفي رواية الصفدي مؤرخ الأمير فخر الدين هذا بلاغ لمن ينصف فقد قال ان الأمير فخر الدين لما ذهب الى طسقانة ونزل على أميرها كان معه إمامه في جملة من حمل من حاشيته وانه بنى جامعاً وأذنة في البلد الذي نزله في ايطاليا يدعو الى الصلاة في الأوقات الخمسة ويصلي جماعة مع إمامه وانه ماتت له ابنة فأبقاها في تابوت حتى اذا عاد الى وطنه نقل رفاتهما معه لتدفن في ديار الاسلام .

هذه أمثلة طفيفة عرضنا لذكرها ليأخذ منها الباحث فكرة عن العابثين بالحقائق من المؤلفين في الغرب . والمأمول ألا تغتر ناشئتنا بضخامة الألقاب التي يحملها بعض المؤلفين فقد ينشأ الغلط من الكبار ويكون أطول مقياساً مما هو في الصغار وفي القرباء أكثر منه في البعداء وفيمن يسمونهم بالعلماء أكثر من غيرهم من الطبقات .

وبعد فكثيراً ما وددت لو قام بعض أرباب الكفاءة منا فنشروا في القاهرة أو دمشق أو بغداد مجلة تعنى برد ما ينشر من هذا القبيل في الكتب والمجلات الافرنجية تدفع به هذه الأباطيل المقصودة عن تاريخنا ومقدساتنا وتنقي العلم من هذا الزؤان والزغل فعصرنا عصر دعاية ومن لا يدعو لما يهيمه لا يهتم له أحد ويظل التباين بينه وبين من يريد أن يكون معهم على وئام متأصلاً .

محمد كرد علي